## "الكتاب لسيبويه " ( 140 _ 180هـ)

### I. التعريف بسيبويه:

اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث بن كعب، ويكنى أبا بشر ويقال كنيته أبو الحسن. وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح. ولد حوالي 140هـ في مدينة البيضاء في بلاد فارس. هاجر مع أهله في سن مبكرة إلى البصرة ونشأ فيها طالبا الحديث والفقه.ثم أخذ النحو عن الخليل وهو أستاذه وعن عيسى بن عمر وعن يونس وعن غيرهم، وأخذ اللغات عن أبي الخطاب الأخفش الكبير وغيره وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ولم يلحق به بعده.

وسيبويه هو علم النحو وإمام النحاة، شهد له شيوخه ومعاصروه بالبراعة في العلم والأمانة فيه. أخذ النحو عن سيبويه جماعة أشهرهم الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة وقطرب. وأصبح الأخفش بعد وفاة سيبويه الطريق الوحيد إلى كتابه؛ إذ درسه عليه الجرمي والمازني وغيرهما. [1]

وتوفي سيبويه وله نحو أربعين سنة بفارس قيل: كان وروده العراق قاصدا يحي بن خالد فجمع بينه وبين الكسائي والأخفش فناظراه وخاطباه في مسائل سألاه عنها وحاكماه إلى فصحاء الأعراب وكانوا قد وفدوا على السلطان وهم: أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان، فكان الكسائي على الصواب، وكلم الكسائي يحي بن خالد فأجاز سيبويه بعشرة آلاف درهم فأخذها وعاد إلى البصرة ومنها إلى فارس ومات بها على الأرجح سنة 180هـ. وكان المبرد إذا أراد إنسان أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له ركبت البحر. تعظيما له واستعظاما لما فيه. وكان المازني يقول : "من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح ". [2]

### I. التعريف بالكتاب:

اختص بهذا الاسم من بين الكتب المؤلفة في النحو حتى اصبح هذا الاسم علما عليه بعد موته، فلم يحاول أحد من تلاميذه بعده وفيهم الأخفش وسعيد بن مسعدة أبو الحسن الذي كان حامل الكتاب وراويه أن يضع له اسما يعرف به، وأبقاه كما تركه صاحبه كتابا منفردا في هذا العلم لا ثاني له في عصره لشموله وأهميته ؛ فقد عاجلته المنية عن أن يفكر في وضع اسم له، فذاع واشتهر باسم "كتاب سيبويه " أو الكتاب. وعرفه النحاة من

---

1 ينظر: ابن النديم(أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي)، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1417هـ - 1997 م، ص 74.

2 ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

تلاميذه وتلاميذهم إلى يومنا هذا بهذا الاسم، مع أن سيبويه لم يقرأه على أحد في حياته سوى ما ذكره معاصره وتلميذه أبو الحسن الأخفش من أن سيبويه كان إذا وضع شيئا من كتابه عرضه عليه[1]... وهو الوحيد الذي كان عارفا بوجوده في ما يروي المؤرخون، إلا أن صالح بن إسحاق أبا عمر الجرمي بذل للأخفش شيئا من المال على أن يقرأه هو وزميله أبا عثمان المازني كتاب سيبويه وشرعا في القراءة عليه واستنساخه منه بين الناس، فضيّعا على أبي الحسن فرصة إخفائه، ثم ادعائه أنه كتابه كما كانا يظنان. وسواء أصح ما ذهب إليه ظن هذين في الأخفش ونيته أم لم يصح فقد قاما بأول خطوه خدمت الكتاب وصاحبه، ومكنت الدارسين من بعده البصريين والكوفيين، ومن جاء بعدهم من نحاة الأقطار الإسلامية الأخرى من الاستفادة منه، وعن الأخفش أخذه الكسائي واستنسخ له نسخة منه، وعنها عمل الفراء نسخته واهتما به واستفادة منه في نحوهما من غير أن يظهرا للناس ذلك. واهتم الناس به وقدروه وعدوه أكبر هدية تقدم إلى الملوك والوزراء، حيث حدث الجاحظ قال أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه فلما وصلت إليه قلت له لم أجد شيئا أهديه لك مثل هذا الكتاب وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال والله ما أهديت لي شيئا أحب إليّ منه. قال بن خلكان ورأيت في بعض التواريخ أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه اعلمه به قبل إحضاره، فقال له بن الزيات: أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ ما ظننت ذلك ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ. فقال ابن الزيات: هذه اجل نسخه توجد وأعزها.

وشهد بحقه بن خلدون وذهب إلى أنه سمي "قرآن النحو " وأصبح عَلَما عند النحويين ولا غنى لا مرئ في أنواع العلوم عنه ولا سيما الإسلامية فإنه فيها أساس وأيّ أساس.[2]

## II. قيمة الكتاب:

ينبغي ألا نظن أنّ الكتاب لم يكفل له صاحبه منهجا سديدا في التصنيف. فقد نسّق سيبويه أبوابه وأحكمها إحكاما دقيقا، وخاصه إذا عرفنا أنه أول كتاب جامع في قواعد النحو والصرف. وقد جعله في قسمين كبيرين، أما القسم الأول فخصه بالنحو ومباحثه، وكاد لا يترك في هذه المباحث جانبا إلا استقصاه من جميع أطرافه في الجزء الأول من الكتاب وأوائل الجزء الثاني، حتى إذا فراغ من هذه المباحث انتقل يبسط في دقة القسم الثاني يخوض فيه الأبواب من المباحث الصرفية، محيطا بكل تفاصيلها إحاطة تامة، واصلا لها بمادة صوتيه واسعة من مثل الحديث عن الإمالة والوقف والروم والإشمام والإشباع وما إلى ذلك من قواعد النحو والصرف إلى ما يشبه

---

1 الزبيدي (محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية، د. ت، ص69.

والقفي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2/ 350.

2 عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، د. ط، 2004، ص547.

نجوما قطبية ثابتة إلى اليوم يهتدون بأضوائها في مباحثهم ومصنفاتهم. ويمكن أن نقول بصفه عامة إن الكثرة من المصطلحات النحوية والصرفية التي لا تزال شائعه على كل لسان في عصرنا كان لكتابه الفضل الأول في إشاعتها وإذاعتها طوال العصور، وكأنه لم يترك لمن بعده إلا ما لا خطر له، كأن يميزوا بعض المصطلحات أو يضيفوا مصطلحات جديدة لغرض الدقة في التوضيح، فمن ذلك أنه عرض لأبواب التوابع عرضا سريعا واسعا وجرت على لسانه كلمات النعت والبدل والتوكيد والعطف البيان ولكنها جميعا يتداخل بعضها في بعض؛ يسمي عطف البيان. وكان يسمي عطف النسق "الشركة " وحروفه مثل الواو "حرف الإشراك ". وقد لا يضع الاصطلاح الخاص المميز كأن نجده يقول هذا باب "نظائر ضربته ضربة، ورميته رمية " وسماه النحاة باب اسم المرة. ويقول هذا "باب ما عالجت به " وسماه النحاة بعده "اسم الالة " مثل المقص.

وفي بعض المواطن من الكتاب ظلال من الغموض والإبهام، وقد يرجع ذلك في الكثير إلى أن سيبويه كان يضع قوانين النحو والصرف وضعا مفصلا متشعبا لأول مرة، فطبيعي أن يتصعب عليه التعبير أحيانا وأن يداخله من حين إلى حين شيء من الإبهام والالتواء في موضع يفتقر إلى شيء من البسط، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه أن نجده يتحدث عن الحذف في الكلام وما قد يجري فيه حذف الفعل ويمثل ذلك بقولهم: "حينئذ الآن " على تقدير "حينئذ اسمع الآن "، كما يمثل بمثال ثان هو قولهم "ما أغفله عنك شيئا ". وظل النحاة حتى عصر المبرد لا يدرون معنى العبارة ولا يعرفون بالتالي موضع حذف الفعل حتى جاء الزجاج، فقال إن العبارة تعليق على كلام تقدم، كأن قائلا قال: " زيد ليس بغافل عني " فأجابه صاحبه "ما أغفله عنك شيئا " على تقدير: انظر شيئا، يريد أن يقول له تفقد أمرك ودع الشك عنك[الكتاب1/ 289] وبذلك فهمت كأنها لغز من الألغاز...

وهذا الغموض في جوانب من الكتاب كان سببا في أن يتناوله كثيرون من النحاة بالشرح والتفسير والتعليق وفي مقدمتهم تلميذه الأخفش وأصحابه من مثل الجرمي والمازني، وكلما تقدمنا مع الزمن تكاثرت شروحه وتفسيراته والتعليقات عليه، ومن أشهرها شرح السيرافي وشرح الرماني. وعنوا عناية واسعة بشرح شواهده الشعرية. وفي ذلك يقول الجرمي: "نظرت في كتاب سيبويه فاذا منه ألف وخمسون بيتا فأما الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتوها، وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها. وعني بعده كثيرون بشرح هذه الشواهد وفي مقدمتهم المبرد والزجاج والسيرافي. وكأنّ سيبويه من الثقة بحيث لم يطعن أحد في شيء مما أنشده من الأشعار المجهولة القائل ولا تعلق عليه باتهام أو إنكار. [1]

1شوقي ضيف، المدارس النحوية،، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، د. ت، ص62، 63.

يقول صاحب الخزانة الخطيب البغدادي(المتوفى: 1093هـ): " الشاهد المجهول إن صدر من ثقة يعتمد عليه قبل وإلا فلا، ولهذا كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد، اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أن فيها أبيات عديدة جهل قائلها وما عيب بها ناقلوها ". [1]

ورغم هذا الإعجاب، فقد لقي الكتاب بعض الإنكار فقد ألف المبرد كتابا اختار له عنوان: الرد على كتاب سيبويه. خصصه في الهجوم على سيبويه والاعتراض عليه. والكتاب لم يرد نصه وإنما وصلت منه اقتباسات كثيره في كتب متأخرة تكفي لتكوين فكره عنه[2].

## III. مادته ومضمونه:

جمع سيبويه في الكتاب مادة خصبة من علوم العربية، فتضمن إلى جانب النحو والصرف مادة لغوية غزيرة من المفردات والعبارات نقلها عنه أصحاب المعاجم، وثروة أدبية استشهد به من النصوص والأشعار. كما تضمن أحكاما بلاغية وصوتية، منها ما يدخل اليوم في علم القراءات والتجويد، ومنها ما يدخل في بحوث فقه اللغة ولهجاتها. وفيه أحكام تتصل بالشعر وصنعته وعروضه وقوافيه.. [3]

بدأ الكتاب بالحديث عن أقسام الكلمة وحركات الإعراب والبناء أو الصرف؛ وأخر الكلم، وعن المسند والمسند إليه، وعما يقع بين الكلمات من اختلاف في اللفظ واتفاق المعنى أو اتفاق في اللفظ واختلاف في المعنى أو اختلاف فيهما جميعا وعما يعتري اللفظ من أسباب الذكر والحذر وأخيرا يذكر ما يحتمله الشعر من ضرورات. ليبدا بعدها الكلام عن باب الفاعل، وهو أول أبواب النحو في الكتاب.

وقد غلبت على الكتاب موضوعات النحو حيث بدأ سيبويه بالنحو وثنى بالصرف صنيع من يراهما علمين ؛ الجزء الأول تناول فيه الكلمة والنكرة وأسماء الأفعال إلى جانب الفاعل والمبتدأ والخبر، وأيضا المنصوبات كالحال والمفعول فيه، وإن وأخواتها والنداء، والاستثناء... وغيرها.

أما الجزء الثاني فجميع أبوابه صرفية اذا استثنينا الممنوع من الصرف الذي افتتح به الجزء. ومن موضوعاته النسب والتصغير، وجمع التكسير وأوزان المصادر وصيغ الأفعال ومعاني الزوائد واسم الآلة وأسماء الأماكن. [4]

---

1 الخطيب البغدادي(عبد القادر بن عمر)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1418هـ - 1997 م، 1/ 16.

2 أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة السادسة، 1988، ص 125.

3 ينظر: مازن المبارك، الرماني النحوي دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1997، ص122.

4 ينظر: مازن المبارك، الرماني النحوي، ص 118.

وهكذا فلهذا الكتاب مكانه في علم أصوات العربية وفي علم النحو والصرف ؛ فقد بيّن مخارج الأصوات وصفاتها، وتناول قضايا صوتيه عديدة ذكرت فيه للمرة الأولى. مثل الإعلال والإبدال والاتباع عن مسائل في فقه اللغة.

وقد تناول "الكتاب مسائل بلاغية مثل الحذف والتشبيه والاستعارة وغيرها من المسائل، وفيه حديث عن العروض.

في الكتاب وخمسمائة وثمان وخمسون(558) بابا، وأربعمائة وعشرون شاهدا قرآنيا(420)، وثمانية شواهد من الحديث الشريف، وتسعمائة وسبع وسبعون (977)بيتا كاملا من الشعر، وخمسة من أجزاء أبيات، وواحد وأربعون (41)مثلا عربيا، وست وثلاثون (36) عبارة مسموعة من العرب، ومائتان وستة وتسعون (296) شاهدا من الأرجاز، وثمانمائة وستون (860) رايا لائمة النحاة السابقين له، وعدد لا يكاد يحصى من الأمثلة التي صاغها قياسا على ما هو مستعمل من لغة العرب. [1]

## IV. مصادر مادة "الكتاب ":

لا شك أن الكتاب ثروة علمية فريده؛ إذ أنه جمع حصيلة قرن من ثمرات تفكير العلماء من أبي الأسود إلى الخليل.[2] ليصل إلينا أول مؤلف في النحو يسجل قواعده، ويرسى معالمه من أئمة النحو، كما انتفع بعلم شيوخه، فالدؤلي (ت69هـ) الذي نقط القرآن الكريم وينسب إليه وضع الضوابط النحوية الأولى، والخليل بن أحمد واضع أول معجم عربي، وواضع علم العروض، وله باب كبير في النحو واللغة، على يديه إضافة إلى ما بينهما أمثال نصر بن عاصم الليثي(ت 89هـ)، عبد الرحمن بن هرمز يحي بن يعمر (ت129هـ) عنبسة بن معدان الفيل(ت100هـ) فاكتسب سيبويه من هذه الفترة علما وافرا مع ذكائه، استطاع بهما جميعا أن يجمع هذه الأفكار ويدونها وتظهر ثمرة يانعة على يديه. فلم يخف عن واضعي كتب طبقات أن مادة هذا العلم ليست ثمرة مجهول مجهود علم واحد من أعلامه.

أما أهم من نقل عنهم من العلماء فهم نقطتان الخليل بن أحمد (ت175هـ) فقد اعتمد أساسا على ما أخذه عن الخليل. ويونس بن حبيب الظبي (ت182هـ) الذي كان ثاني العلماء نقلا، وأيضا ثعلب. أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر (149هـ) وأبو إسحاق الحضرمي.

## V. موضوعات تواصلية:

### 1. سيبويه ومعاني التراكيب:

---

1 المرجع نفسه، 120.

2 محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2008، ص80.